مجلة الرائد

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

عنوان المقال : { إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً }	بقلم : د. موفق الحكيم

هجروه تدبراً وفهماً : أنزل الله تعالى القرآن الكريم منجماً على مدار ثلاث وعشرين سنة ، وحث المؤمنين وحضهم على الإنصات إليه وقراءته وترتيله ، والعمل بما فيه بعد العلم به ، وتدبر آياته وفهمها حق الفهم . قال تعالى : { **كتابٌ أنزلناه إليك ليدبروا آياته** } [ص:٢٩] ، وقال تعالى : { **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** } [النساء:٨٢] .

ولقد كان من آداب الرسول ﷺ وآداب صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين الإقبال على قراءة القرآن وتدبر آياته والواعي والفهم حق الفهم لما يقرؤون ، لأن تدبر القرآن والفهم لآياته نعمة كبيرة وغذاء للروح والجسم ، لا يدركه ولا يعرف كُنهه إلا القارئ الوعي لآيات الله عز وجل . ولقد كان عمر الفاروق ﷺ يدعو الله أن يرزقه قراءة القرآن والعمل بما فيه ، فكان يدعو قائلاً : « اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شيء قدير » [العقد الفريد:ج١ ، ص١٨٢] . وكان علي ﷺ يقول : « لا خير في قراءة إلا بتدبر ، ولا في عبادة إلا بتفكر ، ولا في حلم إلا بعلم » .

نعم ؛ لقد فهم الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم آيات الله على أنها رسائل تتنزل عليهم ، لا يُكتفى فقط بقراءتها ، بل لا بد من تدبر معانيها والعمل بمضامينها . جاء في « التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي رحمه الله ، ص٦ » : " أن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار " . وجاء في كتاب « روائع إقبال » حديث للمفكر الإسلامي والشاعر العظيم محمد إقبال رحمه الله قال : " كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبي يراني فيسألني : ماذا تصنع ؟ فأجيبه أني أقرأ القرآن . وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك من إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك... ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه وكان من أنواره ما قَبَست ، ومن دُرره ما نظمت ".

مجلة الرائد

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

عنوان المقال : { إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً }	بقلم : د. موفق الحكيم

إن الحواس وأدوات الإدراك عندما تتفاعل مع المقروءات والمسموعات فإن ذلك ينعكس على الشعور والجوارح ، وقارئ القرآن عندما يقرؤه بفهم وتدبر وتفكر ينعكس هذا على مشاعره وجوارحه : رغبة ورهبة ، ورضى واطمئناناً ، وعلماً وعملاً ، ويقيناً والتزاماً . يقول الشهيد سيد قطب في « الظلال » : " إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعوضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن ، وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس حين تستمع لها وتنصت أعاجيب من الانفعال والتأثر ، والاستجابة والتكيف ، والرؤية والإدراك ، والطمأنينة والراحة ، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة ، مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه ، وإن العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر ، لا مجرد التلاوة والترنم ، لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ، ومن المعرفة المطمئنة المتيقنة ، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق والإيجابية والعزم والتصميم ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب " . ويقول رحمه الله في موضع آخر : " وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويكسب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستحث القلوب ، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير " .

ويقول الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله في « هكذا علمتني الحياة: ج١ ، ص٦٠ » : " ما رأيت شيئاً يغذي العقل والروح ويحفظ الجسم ويضمن السعادة أكثر من إدامة النظر في كتاب الله " .

ويروى عن حبر الأمة وترجمان القرآن ؛ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قوله : " إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأحبه ولعلي لا أقاضي إليه أبداً ، وإني لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية ، وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم " .

ولقد بين الله تعالى في كتابه العزيز مدى تأثير قراءة القرآن وتدبره على مشاعر المؤمنين وجوارحهم ومداركهم ، يقول الله عز وجل في وصف هذا التفاعل الشعوري : { **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً** } [مريم:٥٨] .ويقول الله تعالى : { **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** } [الإسراء:١٠٩].

مجلة الرائد

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

عنوان المقال : { إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً }	بقلم : د. موفق الحكيم

يقول سيد قطب في « الظلال » في تفسير الآية ٥٨ من سورة مريم : { أولئك النبيون ومعهم ممن هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم } صفتهم البارزة : { **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً** } فهم أتقياء شديدو الحاسة بالله ، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً .

جاء في سنن أبي داود - كتاب الصلاة - عن مطرّف عن أبيه قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء . وقد كان رسول الله ﷺ يبكي أحياناً عند سماع القرآن ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « قال لي رسول الله ﷺ : اقرأ علي ، قلت أقرأ عليك ، وعليك أنزل ! قال : فإني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت : { **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** } قال : أمسك ، فإذا عيناه تذرفان » [صحيح البخاري] . كما كان الصحابة رضوان الله عليهم أصحاب قلوب رقيقة ، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يحزن ويغلب عليه الحزن والخوف حتى كان يشم من فمه رائحة الكبد المشوي ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا سمع القرآن تذكر واعتبر ، وإذا تليت هذه الآية : { **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** } بكى حتى يغلبه البكاء .

ويبين الله تعالى تفاعل الجوارح والمدارك عند تدبر القرآن وقراءته فيقول تعالى : { **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** } [الرعد:٢٨] ، ويقول تعالى : { **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنون به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** } [الحج:٥٤] .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في « الظلال » : " تطمئن (أي القلوب) بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن في جانبه وفي حماه ، تطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق ، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير ، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء الله ، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء ، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة ، ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله ، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات التي ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها ، لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما

تسري في القلب فيستروحها ، ويهش لها ويندى لها ويستريح إليها ، ويستشعر بالطمأنينة والسلام ، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفرداً بلا أنيس ، فكل ما حوله صديق ، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه " .

ويقول تعالى : { **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله** } [الزمر:٢٣] .

يقول سيد قطب في « الظلال » : " هذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به ، وتصور حالها مع الله ، حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة ، كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها ، ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره ، ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء " ، ويتابع : " والذين يخشون ربهم ويتقونه ويعيشون في حذر وخشية ، وفي تطلع ورجاء ، يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود ، ثم تهدأ نفوسهم وتأنس قلوبهم بهذا الذكر ، وتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله " .

نعم ؛ إن الإنصات إلى القرآن الكريم وتدبر معانيه وآياته لا يؤثر فقط في النفوس المؤمنة المسلمة ، بل إنه يؤثر أيضاً في النفوس الأخرى التي تسعى إلى الحق ، وتطليه حثيثاً ، فما أن تستمع إلى آيات الحق والصدق حتى يؤثر بها هذا ويدفعها إلى اعتناق الحق والتزام طريقه والسعي إلى تحقيقه في نفوسها وتطبيقه في حياتها والدعوة إليه . يقول تعالى : { **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** } [المائدة:٨٢-٨٣] . يقول سيد قطب رحمه الله : " إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه ، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بهذا المقول ، فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه المقول ، وليطلق الشحنة

عنوان المقال : { إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً }	بقلم : د. موفق الحكيم

الحبيسة من التأثر العميق العنيف ، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن ، والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان ، إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق ، إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً ، موقف القبول لهذا الحق والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة : { **يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** } ، فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق ؛ موقف الاستماع والمعرفة ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة ، مع دعاء الله سبحانه أن يجعلهم مع الشاهدين لهذا الحق ، الذي يؤدون شهادتهم سلوكاً وعملاً وجهاداً لإقراره في الأرض والتمكين له في حياة الناس " .

ويبين لنا الشيخ الأستاذ علي الطنطاوي حفظه الله في كتابه « فصول إسلامية ص ١٥٤-١٥٥ » بعض النماذج البشرية لمن سمع هذا القرآن وتأثر به فكان بعد ذلك من أشد المدافعين والمنافحين والمكافحين من أجله ، يقول : " لقد سمع سورة طه ولا يزال يسمعها كثيرون لا يحصيهم العد ، ولكن لما أدركت لحظة العناية عمر ، جعلته آيات من هذه السورة يتحول من ذلك الرجل الجاهل الكافر الغليظ الذي جاء ليقتل سيد الخلق ﷺ ويقترف أكبر الجرائم البشرية إلى عمر العبقري العظيم الذي كان يدير وحده إحدى عشرة دولة من دول اليوم ، وكان القاضي فيها والإمام ووزير المالية ووزير الخارجية والمحتسب ، وكان قائد ثلاث جبهات ، وكان يحمل مع ذلك الدقيق على ظهره ويطبخ للمرأة الفقيرة ويطعم أولادها ، وكان يعيش على الخبز والزيت ، وكان يبكي خشية أن يكون قصّر في أمر المسلمين . ولقد سمع آية : { **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** } ولا يزال يسمعها كثيرون لا يحصيهم العد ، ولكن لما أدركت لحظة العناية مالك بن دينار جعلته هذه الآية يتحول مما كان عليه إلى ما صار إليه . ولقد قرأ سورة التكاثر ولا يزال يقرؤها كثيرون لا يحصيهم العد ، ولكن لما أدركت لحظة العناية " ليوبولد فايس " جعلته هذه السورة محمد أسد المسلم الذي أحسن للمكتبة الإسلامية بكتابة « الإسلام على مفترق الطرق » " .

عنوان المقال : { إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً }	بقلم : د. موفق الحكيم

هذه بعض انعكاسات تدبر القرآن وقراءته على الشعور والجوارح والمدارك وتأثيرها في القلوب والعقول ، وهذه بعض الصفات التي ذكرت عن تأثر الرسول العظيم محمد ﷺ وأصحابه خير القرون ، أما ما يذكر في بعض الكتب عن تأثر بعض القارئين وإصابتهم بالإغماء عدة أيام ، أو خروج بعض الأصوات أو الصيحات منهم أو الحركات ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فرط الإحساس وهذا مرض أكثر منه تقوى أو شدة خشية ، فإن أشد الناس تقى وخشية ورهبة كان رسول الله ﷺ ولم يذكر عنه في السنة ولا في الآثار الشرعية أن شدة التأثر لقراءة القرآن وتدبر آياته قد خرجت به عما ذكرنا سابقاً ، وإن كان في داخله وأعماقه من أشد المتأثرين وخاصة بآيات العقاب والترهيب لا خوفاً على نفسه فهو قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكن خوفاً وخشية على أمته وقومه . قيل له يا رسول الله : عجّل عليك الشيب . قال : شيبتني هود وأخواتها .

إن العظمة والروعة في تدبر القرآن أنك تجد فيه التناسق الشامل الكامل على مختلف المستويات ، وأن الإنسان القارئ بتدبر - مهما كان اختصاصه وثقافته ومستواه العلمي - يجد فيه اللذة الروحية التي لا يمكن وصفها . يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى : { **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** } [النساء:٨٢] . يقول : " والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً... ومستوياتها ومجالاتها ، مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها ، ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه - ما يملك إدراكه في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى ، ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية ، ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم أن يدرك من هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق ، ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه... " ، ويتابع : " تتجلى هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ، ابتداءاً في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية ، ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح ، التوفيق والتعثر ، القوة والضعف ، التحليق والهبوط ، الرفرفة والثقلة ، الإشراق والانطفاء ، ... إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر وأخصها سمة التغير والاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال " ، ويتابع رحمه الله : " هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات والتناسق هو الظاهرة الملحوظة في القرآن ، ونحن نتحدث فقط في التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي ، وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف والتناسق المطلق الشامل والكامل بعد

عنوان المقال : { إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً }	بقلم : د. موفق الحكيم

ذلك في ذات المنهج الذي تحمله العبارات ويؤديه الأداء ، منهج التربية للنفس البشرية والمجتمعات البشرية ، ومحتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة " ، ويتابع رحمه الله : " وتدبر هذه الظاهرة في آفاقها هذه قد لا يتسنى لكل إدراك ، ولا يتسنى لكل جيل ، بل المؤكد أن كل إدراك سيتعاون مع الآخر في إدراكها ، وكل جيل سيأخذ بنصيبه في إدراكها ويدع أفاقاً منها للأجيال المترقية في جانب من جوانب المعرفة أو التجربة ".

إن الإعراض عن قراءة القرآن وعن تدبره وفهم معانيه يدل على أن هناك خللاً في النفس البشرية على مستوى القلب أو العقل أو الإدراك ، وكما وصف الله المؤمنين بأن قلوبهم تطمئن إلى ذكر الله : { **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** } ، وصف الآخرين المعرضين فقال : { **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** } .

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ : اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده في هذه المواطن ، فسل الله أن يمن عليك بقلب ، فإنه لا قلب لك . إن الإعراض عن تدبر القرآن وقراءته آية الشقاء ودليل الحرمان ، حرمان لنعمة عظيمة أنعمها الله على الإنسان ، تغذي العقل والروح ، وتساعد على مواجهة متاعب ومصاعب الحياة بروح آمنة ونفس مطمئنة وعزيمة صارمة ، يقول الأستاذ محمد أديب صالح حفظه الله في كتاب « على الطريق ، ص٤٠٥-٤٠٦ » : " ومن أجل هذا كان الأمر بتدبره - أي القرآن - وفقه معانيه ، للعمل بمدلولاته ، وما يتضمنه من أحكام : { **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته** } ، والقلوب المقفلة التي يغشاها الران - والعياذ بالله - هي التي تحرم هذا التدبر ، وتعرض عن التذكرة التي أرادها الله : { **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** } ، { **فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حُمر مستنفرة * فرت من قسورة** } . وكيف لا يكون ذلك والإعراض عن التدبر إعراض عن كل معاني الخير ، ولقد منّ الله على الأمة يوم كان ينزل القرآن فقال : { **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم** } أي شرفكم وما به تُذكرون وتعتزون في الناس ، وفي آية أخرى : { **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** } " .

نعم ؛ مواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون ، وتُعبّركم فلا تعتبرون ، فوا عجباً لكم تسمعون ولا تنصتون ، وتقرؤون ولا تتدبرون ، وتعلمون ولا تعملون ، فواعجباً لكم هل أصبح الجبل ألين من قلوبكم والحجر أطوع من نفوسكم ، والصخر أشد خشية من نفوسكم !!!. { **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** } [الحشر:٢١].